كتابات الرّحّالة الغربيين مصدرًا لتاريخ شبه الجزيرة العربية القديم(١)

د. عبد الله بن عبد الرحمن العبد الجبار
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - قسم التاريخ والحضارة

بدأ الإنسان كتابة أدب الرحلات خلال مدة مبكرة، وأقدم أثر أدبي تمّ العثور عليه يرجع إلى الألف الثالث قبل الميلاد، عندما دوَّن رحّالة بلاد الرافدين وأرض الكنانة انطباعاتهم عن المناطق التي زاروها داخل مناطقهم وخارجها. وأقدم أثر أدبي لكتابات الرّحّالة هو الوصف الذي خلفه الكاهن المصري "وانيمن" عن رحلته إلى لبنان خلال القرن الثاني عشر ق.م(٢) .

وشملت كتابات الرّحّالة الدوافع والصعوبات المصاحبة، أما الجانب الأهم فهو وصف المناطق والشعوب التي قابلوها. واستمر الاهتمام بأدب الرحلات عبر مختلف العصور والحقب التاريخية التالية: القديمة والإسلامية والحديثة بسبب طابعها الأدبي الشائق. فبرز عدد من الكتاب من أمثال "هيرودوت" في الأدب الإغريقي

---

(١) يشكر الباحث كل من ساعد على ظهور البحث ونشره، ويخص بالذكر د. فهد الدامغ ود. عبدالحميد العبدالجبار على ملحوظاتهم القيمة وقراءة مسودة البحث. كما يتوجه بالشكر إلى الفاحصين على ملحوظاتهم وتوجيهاتهم، التي أسهمت في إثراء البحث، فللجميع جزيل الشكر والتقدير.

(٢) للاطلاع على دراسة شاملة ومتخصصة عن تاريخ أدب الرحلات منذ العثور على أول سجل كتابي وحتى العصر البيزنطي، انظر:

Lionel Casson, Travel in the Ancient World, London: John Hopkins University Press, 1994, pp. 39-43.

و"ابن بطوطة" في الأدب الإسلامي. وأخيرًا برزت أهميتها العلمية؛ نظرًا لما تحويه من معلومات قيمة تُعَدُّ مصدرًا غنيًا لدراسة تاريخ المنطقة، وهذا الأمر شجع على عقد عدد من المؤتمرات الخاصة بهذا المصدر الغنيّ بالمعلومات.

وفي الآونة الأخيرة برز الاهتمام بترجمة كتب الرّحّالة الأجانب عن شبه الجزيرة العربية وتقاريرهم، وحظي هذا التوجه بدعم مراكز البحث العلمي في المملكة العربية السعودية وتشجيعها مثل دارة الملك عبد العزيز ومكتبة الملك عبدالعزيز، وغيرهما من المراكز التي سعت إلى إبراز القيمة العلمية لأدب الرحلات والمحافظة على الأسلوب الأدبي الذي كتبت به. ويعي القائمون على هذه المراكز ما تحويه كتابات الرّحّالة من معلومات قيمة تنفرد بها عن المصادر الأخرى، وتشكل قاعدة مهمة لجميع المهتمّين بالدراسات التاريخية والجغرافية والاقتصادية والاجتماعية في شبه الجزيرة العربية. وظهر عدد من الدراسات التي ركّزت على أهمية كتابات الرّحّالة لكونها مصدرًا لتاريخ المنطقة(٣). وتكتسب الترجمات أهمية قصوى عندما تتناول المدة الزمنية المعاصرة لكتابات الرّحّالة عن المنطقة وسكانها.

ولا تقتصر الأهمية العلمية على المدة الزمنية المعاصرة لكتابات الرّحّالة بل تشمل حقبًا وعصورًا تاريخية تعود إلى ما قبل الإسلام والعصور الحجرية. إن الازدياد المطرد في ترجمة أدب الرحلات يساعد الدارسين لتاريخ شبه الجزيرة العربية القديم في الحصول على مصادر جديدة للمعلومات وإمكان توظيفها والإفادة منها في دراسة تاريخ منطقة تعاني من ندرة في مصادرها الأولية.

---

(٣) علي بن إبراهيم النملة، "رحلات المستشرقين مصدرًا من مصادر المعلومات عن العرب والمسلمين"، مجلة مكتبة الملك فهد، (١٤١٦هـ)١/٣٩-٨١، وكذلك لي ديفيد كوبر، كتابات الرّحّالة الأجانب كمرجع لدراسة الحركة الوهابية في القرن التاسع عشر، ترجمة د.عبدالله ناصر الوليعي، الرياض: سهاج للإعلام والنشر، ١٤١٢هـ.

فالباحث في تاريخ شبه الجزيرة العربية القديم يستقي معلوماته بعد بحث مضن في عدد كبير من المصادر المتفرقة مثل الكتب السماوية والكتبٍ العربية والكلاسيكية⁽٤⁾ والشعر الجاهلي والنقوش والآثار وغيرها⁽٥⁾، وعند مقارنة المعلومات المتوافرة في هذه المصادر ببقية مناطق الشرق الأدنى القديم -إيران والعراق وسوريا ومصر- تعد شبه الجزيرة العربية من أفقر المناطق بمصادر التاريخ القديم، فلم يعثر على عمل أدبي كتبه سكان المنطقة.

وهناك اعتماد كامل على الكتب التي أُلّفت خارج شبه الجزيرة العربية من قبل كتاب إغريق ورومان ويهود لم يسبق لهم زيارة المنطقة، الذين اكتفوا بتدوين ما نقل إليهم عن شبه الجزيرة العربية عن طريق التجار العرب والبحارة الأجانب، الذين زاروا سواحل شبه الجزيرة العربية دون التوغل في مناطقها الداخلية. كذلك لم تنجح محاولات الإمبراطوريات القديمة في اختراق هذه العزلة وباءت جميع جهودهم العسكرية بالفشل الذريع⁽٦⁾. وبالإضافة إلى العوامل الطبيعية فإن السبب الرئيس لفشل هذه المحاولات هو نجاح سكان شبه الجزيرة في إحكام عزلتهم الاختيارية عن بقية مناطق العالم القديم. وقد استمرت العزلة حتى بداية العصر الحديث عندما أزاح الرّحّالة الغربيون من مبعوثين ومغامرين ستار العزلة عن المنطقة⁽٧⁾.

---

(٤) يطلق مصطلح كلاسيكي على كل ما يتعلق بالحضارة الإغريقية والرومانية، انظر محمد كمال صدقي، معجم المصطلحات الأثرية، الرياض: جامعة الملك سعود، ١٤٠٨هـ، ص ٩٠.

(٥) طه باقر وعبدالعزيز حميد، طرق البحث العلمي في التاريخ والآثار، بغداد: وزارة التعليم العالي، ١٩٨٠م، ص ٥٥-٧٠، ١١٨-١٣٦.

(٦) المحاولات الآشورية في القرنين الثامن والسابع، والبطالمة في القرن الثالث، والرومان في القرن الأول قبل الميلاد. ويمكن استثناء سيطرة الدولة البابلية على شمال غرب شبه الجزيرة العربية لمدة عشر سنوات خلال القرن السادس قبل الميلاد؛ لدوافع ما تزال مثار جدل بين المؤرخين. انظر جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج١، بغداد: مكتبة النهضة، ١٩٧٦م، ١/٥٧٣-٦٢٨.

(٧) سمير عطا الله، قافلة الحبر. الرّحّالة الغربيون إلى الجزيرة والخليج (١٧٦٢-١٩٥٠م)، بيروت: دار الساقي، ١٩٩٤م، ص ١٥-١٧.

اقترن قدوم الرّحّالة بعدد من الأهداف السياسية والاقتصادية والدينية، التي سبق دراستها بشكل مفصّل من قبل المهتمين بالدراسات الاستشراقية. وقد تباينت آراؤهم ومواقفهم بين معارض ومؤيد لكتابات هؤلاء الرّحّالة عن الإسلام والمسلمين. وقد قام عدد من الباحثين بإعداد دراسات مفصّلة رصدوا خلالها الاتجاهات المختلفة من الاستشراق والمستشرقين(٨). غير أن أهداف الرّحّالة لا تقلل من الأهمية العلمية والتاريخية لأدب الرحلات، خاصة أن هؤلاء الرّحّالة كانوا مغامرين متمرّسين من الدرجة الأولى وعلى معرفة بتاريخ المنطقة القديم والحديث(٩).

لقد ساعد إلمام الرّحّالة بالكتابات الكلاسيكية والعربية عن شبه الجزيرة العربية على معرفتهم بمناطقها المختلفة والأحداث التاريخية المرتبطة بها. وكان لاتباع بعض الرّحّالة الطرق الصحيحة في نسخ الرسوم الصخرية والنقوش والكتابات القديمة أن اكتسبت كتاباتهم طابعًا علميًا يستفاد منه عند كتابة تاريخ المنطقة القديم. ويجب الإشارة إلى أن الدراسات الخاصة بتاريخ شبه الجزيرة القديم بدأت على أيدي هؤلاء الرّحّالة المستشرقين الذين كتبوا تاريخ المنطقة بناء على المعلومات التي استقوها من الكتب الكلاسيكية، وكذلك المعلومات التي دونوها من خلال زياراتهم المتكررة للمنطقة، والقائمة على المشاركة والاختلاط بالسكان المحليين وتسجيل مشاهداتهم.

ومع تحفظنا على تفسيرات المستشرقين التاريخية فإن المعلومات المتوافرة في أدب الرحلات عن مناطق شبه الجزيرة والعرض الدقيق والرسومات الواضحة تكوّن مصدرًا للدراسة العلمية، وما تزال هذه الأعمال تثبت دقة كاتبيها يومًا بعد يوم،

---

(٨) علي بن إبراهيم النملة، مصادر المعلومات عن الاستشراق والمستشرقين. استقراء للمواقف، الرياض: مكتبة الملك فهد، ١٤١٤هـ.

(٩) علي بن إبراهيم النملة، ١٤١٦هـ، مرجع سابق، ص ٣٩-٤٢،٦٣.

وستظل عنصرًا مهمًا لكل باحث يتعرض لتاريخ المنطقة. وتعد أعمال جوسين (١٨٧١-١٩٦٠م) (P. Jaussen) وسافينياك (١٨٧٤-١٩٥١م)(١٠) (P. Savignac) عن مدائن صالح والعلا مثالاً متميزًا لأدب الرحلات، التي تفرض على الباحثين في تاريخ شبه الجزيرة العربية القديم الاعتماد عليه.

فقد طاف هذان الراهبان الفرنسيان بمناطق فلسطين والأردن وسيناء ومصر واليمن وشمال شبه الجزيرة العربية خلال أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وقاما بنشر مجموعة قيّمة من الكتب والدراسات، من أهمها كتاب "بعثة أثرية إلى شبه الجزيرة العربية"، الذي يقع في خمسة مجلدات. والكتاب عمل موسوعيّ ضخم يتناول جوانب عديدة من تاريخ شمال غرب شبه الجزيرة العربية، وهو مزوّد بالصور والرسوم والخرائط والمخططات التفصيلية لعدد من معالم المنطقة الأثرية(١١).

ليس الغرض استعراض إسهامات الرّحّالة الغربيين في مجال الكتابة عن تاريخ شبه الجزيرة العربية القديم، التي تستحق العرض بشكل مفصل، وحسب جهود كل رّحّالة، ولكن الغرض أخذ نماذج من إسهاماتهم المباشرة وغير المباشرة في سبيل إثراء مصادرنا الشحيحة. فعلى الرغم من اعتماد بعض

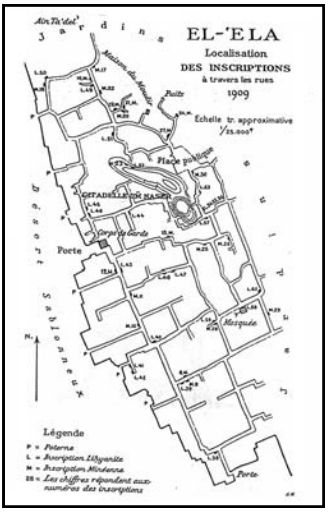
EL-'ELA
Localisation
DES INSCRIPTIONS
à travers les rues
1909
Échelle tr. approximative 1/25.000°
Aïn Ta'del
Jardins
Maison du Moudir
Puits
Place publique
CITADELLE DE NASER
Corps de Garde
Porte
Mosquée
Porte
Sables
N.
Légende
P = Poterne
L = Inscription Lihyanite
M = Inscription Minéenne
28 = Les chiffres répondent aux numéros des inscriptions

مخطط تفصيلي

لمواقع النقوش في مدينة العلا

---

(١٠) نجيب العقيقي، المستشرقون، ٣مج، القاهرة: دار المعارف، الطبعة الرابعة، ٢٦٩/٣-٢٧٠.

(11) P. Jaussen. P. Savignac, Mission Archeologique en Arabie, (Mars-Mai 1907 de Jerusalem au Hedjaz Medain-Saleh, 5 vols. Paris: Ernest Leriux Editeur, rep. 1997.

الباحثين العرب على أدب الرحلات فلم يسبق إفرادها على أنها أحد المصادر المستقلة للدراسة. فلم يفرد المؤرخ الكبير "جواد علي" كتاباتهم بعنوان مستقل عند استعراضه لمصادر ومراجع كتابه الموسوعيّ "المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام"، على الرغم من إحالاته القيمة والعديدة لكتابات الرّحّالة(١٢).

إن الغرض الأول للدراسة ينحصر في معرفة المجالات التي تمّت الإفادة منها في دراسة التاريخ القديم وخاصة فيما يتعلق بالكشوف الأثرية والنقوش، وهي مجالات قدمت الكثير من المعلومات للباحثين في التاريخ القديم. أما الغرض الثاني والأهمّ للدراسة فهو تناول جوانب أخرى من أدب الرحلات لا يقل أهمية عن الجوانب السابقة. هذه الجوانب لا تتعلق بالآثار المادية التي خلفها الإنسان القديم بقدر ما ترتبط بالموروثات الحضارية والاجتماعية من نظم وعادات وتقاليد نشأت في شبه الجزيرة العربية منذ القدم، واستمرت نتيجة تشابه العوامل البيئية. هذه الجوانب تشمل المصادر الطبيعية والعلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وطرق المواصلات، وغيرها. إن الإفادة من كتابات الرّحّالة الغربيين في هذا الجانب سوف يسهم إسهامًا مباشرًا في توسيع قواعد معلوماتنا، ويفتح أبوابًا جديدة من البحث والاستقراء في حقل شحيح بالمصادر الأولية.

أسهم عدد من الرّحّالة في الكشف عن مجموعة كبيرة من آثار الشرق الأدنى والتعريف بأهميتها وقيام أعمال التنقيب الأثرية في المنطقة. والمتتبع لحركة الكشوف الأثرية يدرك الدور الكبير الذي لعبه الجانب الديني في تنشيط عملية البحث، كما يدرك أن نشاط الحركة العلمية والكشوف الجغرافية كانا دافعين قويين لاستمرار الكشوف الأثرية. كذلك ساعد حب المغامرة والرغبة في الوصول إلى

---

(١٢) أثناء دراسته مصادر تاريخ شبه الجزيرة العربية القديم اعتمد المؤلف على نحو عشرين كتابًا ومقالة للرحالة الغربيين، جواد علي، مرجع سابق، ١/ ٥٣٠-٥٤٤.

الأماكن التي ورد ذكرها في الكتب الدينية والكلاسيكية على نشاط حركة البحث والتحري عن هذه الأماكن المجهولة في الشرق الأدنى(١٣).

ونتيجة الجهل بجغرافية المنطقة والتضاريس الصعبة بدأت مرحلة الكشوف الأثرية على أطراف شبه الجزيرة العربية قبل أن ينجح الرّحّالة في اختراق مناطقها الداخلية. وهناك عدد من العوامل التي ساعدت الرّحّالة على جمع أكبر قدر من المعلومات على الرغم من الصعوبات التي واجهوها؛ إذ نجح بعضهم في الحصول على توصيات من الحكام والولاة العثمانيين إلى أمراء المناطق التي زاروها بهدف السماح لهم بحرية التجول، وتزويدهم بمرشدين محليين على درجة عالية من المعرفة بجغرافية المناطق المحلية(١٤). وكان هؤلاء المرشدون ذوي معرفة دقيقة بالتضاريس والطرق وأماكن النقوش والمعالم الأثرية المجهولة التي يقع بعضها في مناطق نائية وغير مطروقة حاليًا. كما أن تنقلهم بواسطة وسائل النقل المحلية من حمير وجمال منحهم الوقت الكافي لتسجيل ملحوظاتهم وعبور الطرق التي سلكها إنسان شبه الجزيرة العربية عبر مختلف العصور(١٥).

نتيجة الجهل بجغرافية المنطقة والتضاريس الصعبة بدأت مرحلة الكشوف الأثرية على أطراف شبه الجزيرة العربية

---

(١٣) تباينت دوافع الرّحّالة وأهدافهم بين الفينة والأخرى، ولتتبع هذه الأهداف، انظر: عطاالله، مرجع سابق، ص ١٥-١١١، كوبر، مرجع سابق، ص ٣٧-٤٩.

(١٤) انظر التوصيات التي حصل عليها الرّحّالة الإيطالي كارلو غوارماني من قبل السلطات التركية والأمراء المحليين. جاكلين بيرين، اكتشاف جزيرة العرب. خمسة قرون من المغامرة والعلم، ترجمة قدري قلعجي، الرياض: منشورات الفاخرية، د.ت.، ص ٢٨٨-٢٩٣، وكذلك التوصيات التي حصل عليها فيلبي من الملك عبدالعزيز، التي تتكرر في جميع كتاباته.

(15) P. Hammond, "Charles M. Doughty as a Source for Nabataean Archaeology," in: Exploration in Doughty's Arabia Deserta. S. Tabachnick (ed.), London: University of Georgia Press (1981), pp. 150-151.

كما أفاد الرّحّالة من معرفتهم بتاريخ المنطقة القديم خلال بحثهم عن الأماكن التاريخية، الذي يتضح من خلال إلمامهم بمؤلفات الكتاب الإغريق والرومان عن مدن المنطقة وسكانها. وكذلك الاسترشاد بالمعلومات والأساطير التي استقوها من مرشديهم ومرافقيهم في سبيل الوصول إلى بعض المواقع، وتحديد مدى أهميتها التاريخية. إن من أهم النقاط التي تسجل لصالح هؤلاء الرّحّالة هو تدوينهم للروايات الشفهية التي ساعدت في عمليات الكشوف الأثرية، وكذلك حفظ هذه الروايات من الضياع والاندثار التي لا تقل أهمية عن الكشوف الأثرية(١٦).

ويمكن الاستشهاد على ذلك بمحاولات الرّحّالة السويسري "بوركهارت" (١٧٨٤-١٨١٧م) (١٧) (J. L. Burckhardt) في الكشف عن مدينة "البترا"، عاصمة مملكة "الأنباط"، إذ قام بعدد من المحاولات قبل نجاحه في اكتشاف المدينة سنة ١٨١٢م(١٨). كما تعد كتابات "جوسين" و"سافينياك" عن مدائن صالح والعلا العمل الأساس والمرجع الأول عن آثار المنطقة، على الرغم من مرور حوالي قرن كامل على نشره، بسبب التفاصيل الدقيقة والرسوم والتعليقات والصور التي يزخر بها الكتاب(١٩).

---

(16) Geoffrey King, " Some European Travellers in Najd in the 19th and Early 20th Centuries A. D.," in: Studies in the History of Arabia. Sources for the History of Arabia, vol.1, part 2, A. Alansary (ed.), Riyadh: King Saud University, 1979, p. 261.

(١٧) اعتنق بوركهارت الإسلام وعرف باسم الحاج إبراهيم عبدالله، وقضى في مكة المكرمة ثلاثة أشهر خلال حكم الدولة السعودية الأولى. تعد كتاباته من أفضل ما كتب عن الدولة السعودية والدعوة السلفية التي خصها بكتاب مستقل. انظر: العقيقي، مرجع سابق، ٥٢/٢.

(18) J. L. Burckhardt, Travels in Syria and the Holy Land, 2 vols. Frankfurt: Institute of the History of Arabia-Islamic Science, rep.1995, vol. 2, pp. 421-432.

(١٩) سعد عبد العزيز الراشد "الآثار في المملكة العربية السعودية خلال مئة عام" =

وينطبق ذلك على عدد من مدن شبه الجزيرة العربية التي نجح الرّحّالة في اكتشافها بعد أن كانت مجهولة، عدا بعض الإشارات العابرة في الكتب الكلاسيكية مثل مدن "مأرب وشبوة والبترا" وغيرها، وكذلك ممالك جنوب شبه الجزيرة مثل دول "معين وقتبان وحضرموت"، التي اشتهرت بنشاطها في تجارة البخور والتوابل خلال العصور القديمة.

شجعت نتائج الكشوف الأثرية ونشر التقارير والكتب عددًا أكبر من المغامرين والمتخصصين على زيارة المواقع المكتشفة والكتابة عنها بكثير من الدّقّة والتفصيل، فساعدت هذه الزيارات على حفظ آثار المدن ومعالمها الأثرية قبل بدء عمليات المسح والتنقيب الأثري خلال القرن الحالي(٢٠). فبعد اكتشاف "البترا" زار المدينة عدد كبير من الرّحّالة الأجانب الذين دونوا ملحوظاتهم ورسومهم عن المنطقة(٢١).

لم يكتف الرّحّالة الغربيون بتعريف المواقع الأثرية الكبيرة والمشهورة فقط، بل قاموا بتحديد عدد كبير من مواقع الاستيطان القديمة خلال جولاتهم الميدانية؛ إذ نجح بعضهم في تعيين هذه المواقع وتحديد الفترات التاريخية المرتبطة بها منذ العصور الحجرية وحتى العصور الإسلامية، من خلال الاستدلال عليها بالمخلفات الأثرية الموجودة في كل موقع.

وتمّ الاعتماد على كتابات الرّحّالة والإفادة منها عند إجراء المسح الأثري الشامل لمختلف مناطق المملكة العربية السعودية، في سبيل

= بحوث مؤتمر المملكة العربية السعودية في مئة عام: الرياض ٧-١١/١٠/١٤١٩هـ/ ٢٤-٢٨/١/١٩٩٩م، الرياض: الأمانة العامة للاحتفال، ١٤١٩هـ، ص ١٨.

(٢٠) بيرين، مرجع سابق، ص ٢٩٨-٢٩٩.

(٢١) عن الرّحّالة الذين زاروا البترا حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي وإنتاجهم العلمي، انظر:

Iain Browning, Petra, London: Chatto & Windus, 1974, pp. 65-78.

تحديد المواقع الأثرية التي ذكرها الرّحّالة، واختصار المدة الزمنية والجهد المطلوب للقيام بعملية المسح. ويُعد برنامج المسح الأثري الشامل القاعدة الأولى التي يعتمد عليها العمل الأثري في توثيق الأنماط الحضارية السائدة وتحديدها والعصور التاريخية المتعاقبة والعمل على وضع أوّليات أعمال التنقيب وحماية الآثار المعرضة للخطر(٢٢). وتدليلاً على أهمية جهود الرّحّالة في مجال العمل الأثري، فقد تمّ إدراجها ضمن مراحل تطور الدراسات الأثرية في المملكة العربية السعودية(٢٣).

وتبرز أهمية أدب الرحلات في توثيقها لمعالم أثرية لم يعد لها وجود، فهناك عدد من المواقع الأثرية التي زوّدنا الرّحّالة بوصف دقيق لها وللمناطق المحيطة بها، غير أن هذه المعالم الحضارية اندثرت بفعل العوامل الطبيعية أو التدخل الإنساني.

وخير مثال على ذلك المعلم الأثري المعروف باسم "عمود قصر سدوس" الذي نعرفه بصورة غير واضحة من خلال الكتابات الإسلامية المتناثرة(٢٤). ولكن الرّحّالة البريطاني "لويس بلي" (١٨٢٥-١٨٩٥م)(٢٥) (Lewis Pelly)، الذي زار الرياض سنة ١٢٨١هـ/١٨٦٥م لمقابلة الإمام "فيصل بن تركي"، ووصف أجزاء وأبعاد العمود المختلفة، وأرفق رسمًا لهذا الأثر الحضاري(٢٦). إن مثل هذا المعلم الأثري

---

(٢٢) روبرت أدمز وآخرون، "الاستكشاف الأثري للمملكة العربية السعودية ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م، تقرير مبدئي عن المرحلة الأولى من برنامج المسح الشامل" الأطلال ،١(١٣٩٧هـ) ص ٢١-٤٥.

(٢٣) الراشد، مرجع سابق، ص ٧-١٣.

(٢٤) لدراسة عن هذا المعلم الأثري وأسباب إزالته، انظر عبدالمحسن محمد المعمر، "قصر سدوس العجيب"، جريدة الرياض، ١١١٠٣(١٤١٩/٧/٢٨هـ) ص ١٧.

(٢٥) شغل الليفتنانت كولونيل لويس بلي منصب المقيم البريطاني في ميناء بوشهر في الخليج العربي، وكان الغرض من الرحلة تحسين العلاقات مع الدولة السعودية، لويس بلي، رحلة إلى الرياض، ترجمة عبدالرحمن الشيخ وعويضة الجهني، الرياض: جامعة الملك سعود، ١٤١١هـ، ص: هـ - ي.

(٢٦) بلي، مصدر سابق، ص ٦٥-٦٦، ١٥٢.

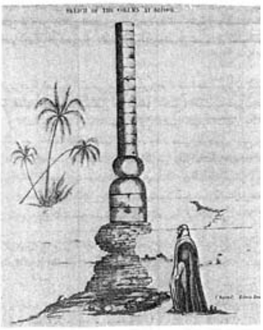

مخطط لعمود سدوس

(لويس بيلي)

لايمكن تحديده إلا عن طريق أعمال المسح الأثري، والمرجع الوحيد حاليًا هو تقرير "لويس بلي" الذي يمكن من خلاله تحديد الموقع ومحاولة التنقيب فيه.

والمثال الأخر هو إشارات الرّحّالة المتكررة إلى برج "الجوف". وأول إشارة له كانت من الرّحّالة الألماني "سيتزن" (U. J. Seetzen) سنة ١٨٠٨م، الذي ذكر أن برج "الجوف" يفوق الأبراج الأخرى التي شاهدها مرتين أو ثلاث مرات(٢٧). وخلال زيارة الرّحّالة "جورج والين" (١٨١١ - ١٨٥٣م) (G. A. Wallin)(٢٨) للجوف سنة ١٨٤٥م سجل ملحوظاته عن الارتفاع الشاهق للبرج. كما دوّن الرواية المحلية التي تذكر قيام الخليفة "عمر بن الخطاب" رضي الله عنه، بجعله جزءًا من المسجد، ثم إعادة ترميمه على يد الإمام "عبدالعزيز بن محمد بن سعود" دون تغيير.

ويرجح "جفري كنغ" أن البرج أو المنارة هي أقدم منارة في شبه الجزيرة العربية لكونه يعود إلى زمن ما قبل الإسلام، غير أن التأكد من صحة الاستنتاج يحتاج إلى إجراء الحفريات الأثرية(٢٩). ولذلك

---

(٢٧) King, op. cit, p. 260، لم يزر ستيزن الجوف، ولكنه نقل هذه المعلومات من خادمه الذي أرسله لاستكشاف المنطقة. ويعد ستيزن من أهم الرّحّالة الذين كتبوا عن الأردن، كما قام بزيارة المدينة المنورة ومكة المكرمة، وقتل خلال تنقله في اليمن سنة ١٨١١م، انظر : بيرين، مرجع سابق، ص٢١٠-٢١٦.

(٢٨) مستشرق فنلندي درس العربية في روسيا، ثم تنقل في الشرق الأدنى وشبه الجزيرة العربية مظهرًا أنه طبيب مسلم تحت اسم عبدالوالي، وتعد كتابته عن البدو من أهم ما كتب في هذا المجال بسبب علاقاته الجيدة مع السكان المحليين. انظر: بيرين، ٢٧٣-٢٨٨، والعقيقي، مرجع سابق، ٣/٢٤٤-٢٤٥.

(٢٩) King, op. cit, pp. 260-261، بشأن تاريخ بناء المسجد والمنارة قارن ما كتبه حمد الجاسر، في شمال غرب الجزيرة العربية. نصوص، مشاهدات، انطباعات. الرياض: دار اليمامة، ١٤٠١هـ، ص ١٥٠-١٥١.

فإنه من غير المعروف أهذا البرج الموجود حاليًا يمثل ما شاهده الرّحّالة والين، أم هو نتيجة ترميمات متأخرة؟

من الجوانب المهمة في أدب الرحلات هو معرفة العينات التي جمعها الرّحّالة خلال زياراتهم المتعددة التي تشمل القطع الأثرية من فخار ونقود وأدوات

ومن الجوانب المهمة في أدب الرحلات هو معرفة العينات التي جمعها الرّحّالة خلال زياراتهم المتعددة التي تشمل القطع الأثرية من فخار ونقود وأدوات، وكذلك الوصف الذي قدمه الرّحّالة لهذه القطع والحالة التي وجدت عليها كل قطعة ومكان العثور عليها(٣٠). ولصعوبة استرداد هذه القطع فإن المعلومات المدونة في أدب الرحلات تكوّن معلومات جوهرية يمكن مقارنتها بنماذج مشابهة من مناطق أخرى، أو الاسترشاد عن أماكن وجودها، والبحث عن عينّات جديدة للتأكد من صحة المعلومات التي قدّمها الرّحّالة. كما يُعد التعرف على أماكن انتشارها دليلاً ماديًا لمعرفة مدى انتشار النفوذ السياسي للممالك العربية والصلات الاقتصادية بين شعوب المنطقة.

حظي البحث عن النقوش والرسوم الصخرية بجانب مهم من جهود الرّحّالة الغربيين خلال تنقلهم بين مختلف أنحاء شبه الجزيرة العربية، ويندر العثور على كتاب أو مقالة لا تتضمن إشارة إلى اكتشاف نقوش جديدة أو التحقق من نقوش تم ذكرها في الكتابات السابقة. وتكبد بعض الرّحّالة صعوبات جمة في سبيل الوصول وتسجيل أكبر عدد من النقوش وسط تضاريس جغرافية صعبة. وهذه المعاناة لها ما يسوغها عندما نعرف أن النقوش هي السجل الكتابي الوحيد الذي خلّفه لنا إنسان شبه الجزيرة العربية القديم منذ زمن ما قبل الإسلام.

---

(30) Hammond, op. cit, p.152.

وقام بعض الرّحّالة الأوائل بجهود مضنية لتسجيل ما عثروا عليه من نقوش ونشرها، كالرّحّالة "شارل هوبير" (١٨٨٤م)(C. Huber)(٣١) و"جوزيف هاليفي" (١٨٣٧-١٩١٧م)(J. Halevy)(٣٢) و"جوسين وسافينياك". ويجب الإشارة إلى أن معظم الرّحّالة الذين زاروا المنطقة لم يكن لديهم الإلمام الكافي بالكتابات العربية القديمة، ولكن بعضهم عوّض ذلك بالاهتمام الدقيق بعملية النسخ. كما فعل جون فيلبي عندما صحّح قراءة نقش "السيل الكبير" بالقرب من "مكة المكرمة"(٣٣)، الذي سبق أن نقله "شارل داوتي" (C. Doughty) (١٨٤٣-١٩٢٦م) خلال القرن التاسع عشر الميلادي(٣٤).

كما حرص عدد آخر على نقل هذه النقوش وتقديمها للمتخصصين بكتابات شبه الجزيرة العربية القديمة من سبئية ومعينية وتيمائية ولحيانية ونبطية وثمودية وصفوية وغيرها كالرّحّالة "جون فيلبي" (١٨٨٥-١٩٦٠م) (H. St. J. Philby)(٣٥)، الذي استعان

---

(٣١) شارل هوبير، (ت ١٨٨٤م) من الرّحّالة الذين زاروا شمال شبه الجزيرة واهتم بنسخ النقوش القديمة، انظر: العقيقي، مرجع سابق، ١/٣٨٨.

(٣٢) رحالة فرنسي ذو أصل يهودي نجح في زيارة جنوب شبه الجزيرة، وجمع عددًا كبيرًا من النقوش الجنوبية التي لفتت اهتمام الأوربيين للكتابات العربية الجنوبية، العقيقي، مرجع سابق، ج١/١٩٩-٢٠٠.

(33) Ithaca: Cornell University Press, H. St. J. Philby, Arabian Highlands, 1952, p. 70.

(٣٤) رحالة إنجليزي زار مناطق شمال غرب شبه الجزيرة العربية، وكتب عن السكان والبيئة والمعالم الأثرية، وتعد كتاباته من أفضل ما كتبه الرّحّالة الأجانب عن المنطقة، العقيقي، مرجع سابق،٢/٧٠-٧١.

Hammond, op. cit, pp. 148-149.

(٣٥) الشيخ عبدالله فيلبي، دبلوماسي إنجليزي، تنقل في عدد من الدول قبل أن يستقر في المملكة العربية السعودية مستشارًا للملك عبد العزيز، وألف مجموعة كبيرة من الكتب والمقالات عن رحلاته في شبه الجزيرة العربية، انظر: العقيقي، مرجع سابق، ٢/١١٦.

بعدد من المتخصصين في الدراسات العربية القديمة مثل ريكمانز (١٨٨٧م) (P. Ryckmans)⁽³⁶⁾.

لقد تمت الاستفادة من عمل الرّحّالة في مجال النقوش، وتمّ تبويبها في موسوعات ضخمة سهّلت على الباحثين الرجوع إلى أحد النقوش ومقارنته بالنقوش الأخرى. ونشر جزء كبير من هذه النقوش في "مجموعة الكتابات السامية"(Corpus Inscriptionum Semiticarum) التي صدر منها أجزاء عدة تحت إشراف الأكاديمية الفرنسية⁽³⁷⁾. وقد تمت الاستعانة بكتابات الرّحّالة عن النقوش خلال عمليات المسح الأثري الشامل لآثار المملكة العربية السعودية، وخاصة البرنامج المتعلق بمسح الكتابات العربية القديمة والرسوم الصخرية وتحديدها، الذي تشرف عليه وكالة الآثار والمتاحف ضمن جهودها لرصد مصادر تاريخ شبه الجزيرة العربية القديم⁽³⁸⁾.

وصاحب جهود الرّحّالة خلال عملية جمع النقوش العديد من الأخطاء أثناء مراحل النسخ والكتابة⁽³⁹⁾، أو خلال ترجمة النصوص في الفترة الأولى، القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، بسبب عدم ظهور الدراسات اللغوية التي تعنى بفقه الكتابات العربية القديمة. فعلى الرغم من أهميتها تحتوي كتابات "هوبير وجوسين وسافاينياك" على أخطاء جوهرية أثناء ترجمة النقوش النبطية، بسبب قلة الدراسات اللغوية المنشورة في تلك المدة، التي لم تكن

---

(٣٦) عالم بلجيكي تخصص في دراسة الكتابات العربية القديمة، وشارك في عدد من البعثات الأثرية التي عملت في شبه الجزيرة، العقيقي، مرجع سابق، ٢٣٠/٣-٢٣١.

(٣٧) العقيقي، مرجع سابق،١٥٣/١. لا تقتصر المجموعة على الكتابات الخاصة بشبه الجزيرة العربية بل تشمل جميع الكتابات السامية في الشرق الأدنى.

(٣٨) اليستر ليفستون وآخرون، "حصر وتسجيل النقوش الصخرية ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م" الأطلال، ٩ (١٤٠٥هـ) ص ١٢٧-١٤٥، ١٢٧-١٢٨.

(٣٩) سليمان الذييب، نقوش الحجر النبطية، الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤١٩هـ، نقش ١٠-١١، ص ٤٤-٤٥.

كافية لفهم قواعد اللغة النبطية والإلمام الشامل بمصطلحاتها(٤٠).

غير أنه يوجد عدد كبير من النقوش لا يمكن الرجوع إليها والتأكد من صحة نقلها ويجب الاعتماد كليًا على كتابات الرّحّالة نتيجة اندثار هذه النقوش بسبب عوامل التعرية الطبيعية أو التدخل الإنساني الجائر على مورثاته الحضارية. ولذلك فإن مجرد الإشارة إلى أحد النصوص يعد عاملاً مهمًا في تحديد موقعه وإمكان الرجوع إليه، كما فعل فيلبي عندما بحث عن نقش "داوتي" الذي سبقت الإشارة إليه.

غير أن بعض هذه النقوش فُقِدَ. وكمثال يمكن ذكر جهود الرّحّالة "شارل هوبير" الذي زار "حائل" سنة ١٨٨٣-١٨٨٤م، وأدّى دورًا مهمًا في نقل حجر تيماء المشهور إلى باريس(٤١). كما يعد هوبير المصدر الوحيد لمجموعة مهمة من النقوش العربية القديمة، التي أزيلت بأمر من أمير حائل، محمد بن رشيد، بعد أن أبلغه رجاله أن هوبير يقوم بكتابة رسائل سرية على الصخور بهدف إرشاد أعداء الأمير(٤٢).

وهنا يجب التركيز على أهمية الاستعانة بكتابات الرّحّالة أثناء قراءة النقوش وترجمتها، التي تعطي تفصيلات جوهرية عن المنطقة التي وجد فيها النقش، وتقدم عددًا من الملحوظات المتعلقة بالموارد الطبيعية القريبة والطرق المؤدية. إن قراءة النقوش بمعزل عن بيئة النقش يمكن أن يؤدي إلى أخطاء في فهمه وتفسيره بالشكل

---

(40) John Healy, The Nabataean Tomb Inscriptions of Madain Salih, Oxford: Oxford University Press, 1993, pp. 4-5.

(٤١) هناك من يميل إلى أن اكتشاف حجر تيماء ونقلها تم عن طريق الرّحّالة يوليوس أوتينج، وذلك بناء على رواية الأخير، الذي يشير إلى عثوره على الحجر في قصر طليحان وليس بئر هداج كما هو شائع. انظر: يوليوس أوتينج، رحلة داخل الجزيرة العربية، ترجمة سعيد فايز السعيد، الرياض: دارة الملك عبد العزيز ١٩٩٩م، ص ١٦٠-١٦٢.

(٤٢) الجاسر، مرجع سابق، ص ٣٥٤.

الصحيح، وعلى العكس من ذلك يساعد معرفة البيئة المحيطة بالنقش على إدراك الغرض من كتابته. فيمكن طرح عدد من التساؤلات قبل البدء في الترجمة مثل البيئة التي عثر فيها على النص أهي صالحة للاستقرار، أم هي مجرد منطقة عبور، أم هي خاصة بأحد المراكز الدينية؟ وغيرها من التساؤلات التي يمكن الإجابة عنها من خلال معرفة بيئة النقش. تشكل هذه العناصر جزءًا أساسًا لفهم النقش وترجمته بشكل صحيح، والحصول على أكبر قدر من المعلومات التاريخية(٤٣).

تشكل الموضوعات السابقة عناصر رئيسة وبارزة في أدب الرحلات استخدمها كثير من الباحثين في تاريخ شبه الجزيرة العربية القديم؛ إذ تم الاعتماد على كتاباتهم عند الكتابة عن عصور ما قبل الإسلام(٤٤). كما أنها تُعد العناصر التقليدية للعاملين في تخصصات الآثار والكتابات القديمة؛ لما لهذه العناصر من أهمية كبرى في تزويد المتخصصين بمعلومات قيمة(٤٥).

إن أهمية أدب الرحلات لا يقتصر على الموضوعات السابقة، بل يحوي جوانب مهمة لتاريخ شبه الجزيرة القديم ترتبط ارتباطًا مباشرًا بالمجتمعات التي عاصرها هؤلاء الرّحّالة، وقاموا بوصفها وبوصف العادات والتقاليد والنظم السياسية والحضارية التي حكمت تلك المجتمعات.

أدب الرحلات يحوي جوانب مهمة لتاريخ شبه الجزيرة القديم ترتبط ارتباطًا مباشرًا بالمجتمعات التي عاصرها هؤلاء الرّحّالة

---

(43) Hammond, op. cit, p.150.

(٤٤) انظر: كتابات الشيخ حمد الجاسر عن مدينة تيماء الذي اعتمد على ترجمة الأجزاء المتعلقة بتاريخ المدينة القديم من كتب الرحالة وتقاريره، مرجع سابق، ص٣٥٠-٣٧٠، ٣٧٩-٣٩٠.

(٤٥) عبدالرحمن الطيب الأنصاري وزيدان كفافي، "تأصيل منهج البحث الأثري. نموذج منطقة المشرق العربي"، العصور، ٧ (١٩٩٢م) ص ١٥٥-١٥٩.

إن القوانين والتقاليد التي حكمت تلك المجتمعات لم تتغير بشكل جذري عبر العصور المتعاقبة، عدا التغير الجذري الذي أحدثه الإسلام في الجانب الديني والتغير الزمني في مراكز القوى السياسية بين الفينة والأخرى، فقد استمرت الأنشطة الاجتماعية والاقتصادية على الوتيرة نفسها عبر مختلف العصور(٤٦). لقد حدث التغير الجذري لمجتمعات المنطقة مع دخول التقنيات الحديثة في مجالات النقل والسكن والاتصالات، مما أزال الكثير من المقومات السائدة في السابق.

كما أن الاتجاه التقليدي في دراسة التاريخ القديم بوجه عام بدأ في التحول مع ظهور مدارس جديدة في علمي الآثار والتاريخ القديم خلال عقد الثمانينيات الميلادية. ومن أبرز المدارس الجديدة ما يعرف باسم المدرسة الحولية، التي يركّز منظّروها على أهمية فهم التطورات التاريخية عبر حقبة زمنية طويلة، مع التركيز على أثر العوامل البيئية والتطورات التقنية في تغيير المجتمعات(٤٧). وهم في ذلك يسيرون على خطى علماء الأنثربولوجيا الذين استفادوا من كتابات الرّحّالة في دراسة مجتمعات عصور ما قبل التاريخ.

إن دراسة التطورات التاريخية عبر حقبة زمنية طويلة يسمح بعقد المقارنات بين المجتمعات القديمة والحديثة وفق ضوابط وقواعد

---

(46) Hammond, op. cit, pp.153-154, and H. Olivier, "Remarks on Landscape Resources and Human Occupation in Jordan According to some Nineteenth Century Travelogues," Studies in the History and Archaeology of Jordan, 11(1997), pp. 393-394.

(٤٧) للاطلاع على النقاش الدائر ووجهات النظر المختلفة بشأن المدارس التاريخية والأثرية، انظر:

S. L. Dyson, "From new to new Age Archaeology: Archaeological Theory and Classical Archaeology," American Journal of Archaeology 97(1993), pp. 195-206 and Peter Burke, History and Social Theory, New York: Cornell University Press, 1992.

مقننة يمكن من خلالها الإفادة من المعلومات المتوافرة عن المجتمعات الحديثة في فهم المجتمعات القديمة من بادية وحاضرة. ولعدم وجود تحولات جذرية في البيئات المحلية، فإن الأنماط السائدة خلال مدة أدب الرحلات تُعد عاملاً مساعدًا في فهم علاقة الإنسان بالبيئة عبر مختلف العصور(٤٨).

إن مقارنة مجتمعات أكثر من قرنين من أدب الرحلات بمجتمعات شبه الجزيرة العربية القديمة تُعد أفضل الوسائل المتاحة للوصول إلى بعض الاستنتاجات المفيدة للبحث التاريخي؛ إذ في مصادرنا القديمة عن الموضوعات الحضارية نقص كبير ولا يمكن للكشوف الأثرية أو النقوش تعويضه، وذلك بسبب عدم الاهتمام بتدوين هذه الموضوعات في السابق. إن دراسة التركيبة الاجتماعية والأوضاع الاقتصادية وتوظيفها في مجال الدراسات القديمة له أثر إيجابي في التفسير التاريخي والحضاري للجزيرة العربية. كما يساعد على معرفة العوامل التي أدت إلى تحول بعض المجتمعات الرعوية إلى الاستيطان والاستقرار الدائمين أو العكس.

لقد استعان "هانس أولفر" بأدب الرحلات خلال القرن التاسع عشر الميلادي لوضع تصور عن علاقة السكان المحليين بالمصادر الطبيعية وأنماط الاستقرار في البيئات المختلفة من منطقة الأردن. ويرى أن وصف السكان والمناطق لم يكن الهدف الأساس للرحالة، التي غلب عليها الأهداف السياسية والاقتصادية والدينية، ولكن كتاباتهم تعطي وصفًا دقيقًا يمكن من خلاله فهم العلاقة بين الإنسان والبيئة عبر مختلف العصور(٤٩).

ويؤكد ذلك عالم الآثار والمتخصص في الدراسات النبطية "فيليب هموند"، الذي يرى أن وصف "شارل داوتي" للبيئات الاجتماعية

---

(48) Olivier, op. cit, pp.393-394.

(49) Ibid., p. 396.

المختلفة في شمال غرب شبه الجزيرة العربية، ربما لا يختلف اختلافًا جوهريًا عن المجتمع النبطي خلال القرون الأولى قبل الميلاد(٥٠). كما تُعد بعض المجتمعات البدوية نموذجًا يساعد على وضع تصور عن حياة الأنباط خلال المرحلة الأولى "القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد"، وقبل قيام الحضارة النبطية، وذلك لتشابه المقومات البيئية والسياسية والاقتصادية، إذ أدوا أدوارًا مماثلة بالاعتماد على الوسائل المحلية ومصادرها مع وجود الفارق الزمني فقط.

إن معظم أحداث الشرق الأدنى وشبه الجزيرة العربية استمرت على الرتابة نفسها طوال العصور المتعاقبة. فالشداد المستخدم حاليًا مع الجمل، وبكثرة قبل ظهور وسائل النقل الحديثة لم يتبدل بشكل جذري عن الشداد الذي صوره الفنان الآشوري قبل ٢٧٠٠ سنة من الوقت الحالي في ذكرى انتصارات الآشوريين على العرب. ونجد أن مؤرخًا مثل "رتشارد بولييت" يوظف أدب الرحلات في تفسير المعلومات الشحيحة التي تتوافر في مصادر التاريخ القديم بغرض تتبع مراحل تطور استئناس الجمل في شبه الجزيرة العربية(٥١).

كما نجد وصف المؤرخ الإغريقي "ديودور الصقلي" (حوالي ١٠٤-٢٠ ق.م.) لاستخراج الأنباط للمياه في الصحراء خلال القرن الرابع قبل الميلاد(٥٢)، مطابقًا لرواية سلفه "هيرودوت" (حوالي ٤٨٤-

---

(50) Hammond, op. cit, p. 157.

(51) R. W. Bulliet, The Camel and the Wheel, Oxford: Columbia University Press, 1990, pp. 77-92.

(٥٢) كاتب إغريقي يعود له الفضل في نقل أجزاء كبيرة من مؤلفات من سبقوه من الكتاب الإغريق ووضعها في كتابه المسمى "المكتبة التاريخية"، وقد نقل معلومات مهمة عن الأنباط من القرن الرابع قبل الميلاد.

Diodorus Siculus, Historical Library, C. H. Oldfather (trans.) Loeb Classical Library, Cambridge: Harvard University Press, II 48.2-4; XIX 49.6.9.

٤٢٠ ق.م.)(٥٣) عن العرب المتعاونين مع الأخمنيين خلال القرن الخامس قبل الميلاد، وقريبًا من وصف بعض الرّحّالة الذين زاروا المنطقة بعد حوالي ألفي سنة(٥٤).

لقد اندثرت حياة البداوة التي سادت طوال آلاف السنين، وتأثر سكان البادية بالتقنيات الحديثة، فاستبدلوا بالجمل السيارة، وبالآبار صهاريج المياه، وببيوت الشعر المباني. هذا التحول السريع والجذري في نمط المعيشة يجعل من المستحيل إجراء دراسة عن البداوة والأنماط الحضارية السائدة في شبه الجزيرة العربية دون الاعتماد على كتابات الرّحّالة الذين اهتموا بتسجيل التفاصيل الدقيقة خلال معايشتهم اليومية للسكان المحليين. لقد وفّر الرّحّالة معلومات مهمة عن القبائل المختلفة وقدراتها العسكرية والاقتصادية. كما نجحوا في تقصي العلاقات بين أفراد القبيلة الواحدة أو بين القبائل المختلفة خلال أوقات السلم والحرب، وعقدوا المقارنات بينهم وبين سكان المدن والقرى من حيث القوة العسكرية والإمكانات الاقتصادية.

ففي بداية القرن التاسع عشر الميلادي قدم "بوركهارت" وصفًا شائقًا عن شيخ منطقة الكرك ومجتمعها، في جنوب الأردن، وكذلك عن العلاقات التي تربطهم بالقبائل المجاورة والصراع بين الطرفين. كما أشار إلى قوة سكان المنطقة ومناعتهم، هذا الوصف هو تجسيد لما ذكره المؤرخ الإغريقي "هيرودوت" عن عرب المنطقة خلال القرن الخامس قبل الميلاد، الذي اكتفت الدولة الأخامينية بخضوعهم

---

(٥٣) رودوت زار مصر وكتب عن الدولة الأخامنية وعلاقاتها بعرب شمال شبه الجزيرة العربية، ومساعدة العرب لهم في عبور سيناء.

Herodotus, History, A. D. Godley (trans.) Loeb Classical Library, Cambridge: Harvard University Press, III 7-9.

(٥٤) انظر على سبيل المثال:

C. M. Doughty, Arabian Deserta, 2 vols. New York: Dover,1979, vol. 1, p. 350.

الاسمي وعدم تعيين حاكم فارسي على المنطقة أسوة ببقية مناطق الإمبراطورية(٥٥).

إن الاستعانة بأدب الرحلات لا يعني القبول بهذا المصدر أساسًا لدراسة المجتمعات القديمة، ولكن أداة تساعد على فهم الآلية التي حكمت العلاقات بين أفراد القبيلة الواحدة ومختلف القبائل، وبين القبائل والمجتمعات الزراعية والحضرية في شبه الجزيرة العربية. ومن هذا المنطلق اعتمد "وليم لانكستر" و"فيدليتي لانكستر" على كتابات الرّحّالة والمصادر القديمة في دراستهم القيمة عن قيام القبائل في شبه الجزيرة العربية(٥٦). وخلال الدراسة قاما بالتركيز على العناصر البيئية والعلاقات الاجتماعية في كتابات الرحالة، وأثر هذه العوامل في قيام المجتمع القبلي القديم.

ومن الجوانب المهمة دور أدب الرحلات في تحديد الطرق القديمة في شبه الجزيرة، التي لم تتغير أو تتأثر بشكل جوهري منذ العصور القديمة وحتى القرن التاسع عشر الميلادي، عدا مدة قصيرة نتيجة بعض العوامل المؤثرة من تغير في مراكز القوى السياسية أو شح في المياه(٥٧). ويؤكد استمرارية استخدام الطرق نفسها ما تزخر به من رسوم صخرية ونقوش وكتابات قديمة وإسلامية تمثل شهادة الأجيال المتعاقبة.

إن وضع دراسة مفصلة للطرق القديمة في شبه الجزيرة يعتمد على عدد من المصادر التي تُعد أدب الرحلات واحدًا منها، ولا يمكن

---

(55) Herodotus, op. cit, III. 91.

(56) W. Lancaster, and F. Lancaster, "Tribal Formation in the Arabian Peninsula," Arabian Archaeology and Epigraphy. 1992 , 3. 145-165.

(٥٧) هناك عدد كبير من العوامل البشرية والطبيعية التي تتحكم في مسارات الطرق القديمة، انظر:

Daniel Potts, "Trans-Arabian Routes of the Pre-Islamic Period," in: L`Arabie et Ses Mers Bordieres, J.F. Salles (ed.), Paris: Travaux de la Maison de l`Orient, 1988, 127-128.

الاستغناء عنه؛ إذ اعتمد الرّحّالة وسائل النقل القديمة، ووضعوا وصفهم الدقيق للطرق التي استخدموها والروايات المحلية لهذه الطرق، كذلك أفادوا من الكتابات الكلاسيكية في سبيل التعرف على الطرق التجارية القديمة. ومن خلال الاعتماد على أدب الرحلات والمصادر الإسلامية نشر "دانيل بوتس" دراسة علمية عن الطرق التجارية وضع خلالها تحديدًا لمسارات عشرات الطرق الرئيسة ومئات الطرق الفرعية التي اخترقت شبه الجزيرة خلال عصور ما قبل الإسلام(٥٨). إذ قام الباحث بحصر الطرق الرئيسة والطرق الفرعية داخل كل منطقة، مع الإشارة إلى نقاط التوقف والآبار الموجودة على الطريق.

وفي مجال التنقل حرص الرّحّالة على تسجيل المدة الزمنية المطلوبة للتنقل من مكان إلى آخر سواء كانوا برفقة قوافل الحجيج أم القوافل التجارية، أم خلال تنقلهم برفقة مرشديهم. واعتمدوا في تنقلاتهم على وسائل النقل القديمة من جمال وحمير وبغال(٥٩). إن معرفة المدة الزمنية اللازمة للانتقال من مكان إلى آخر عن طريق القافلة أو الفرقة العسكرية أو الفرد، يعد من الأمور المهمة عند دراسة بعض الأحداث التاريخية القديمة، وتفسير التطورات السياسية والعلاقات التي حكمت مجتمعات شبه الجزيرة العربية خلال العصور القديمة(٦٠).

---

(58) Ibid., pp. 135-155.

(٥٩) انظر الملاحق رقم ٧،٦،٥،٤،٣ التي وضعها لويس بلي عن رحلته إلى شبه الجزيرة العربية، مصدر سابق، ص ١٣٢-١٤٠.

(60) Potts, op. cit., pp. 155-157.

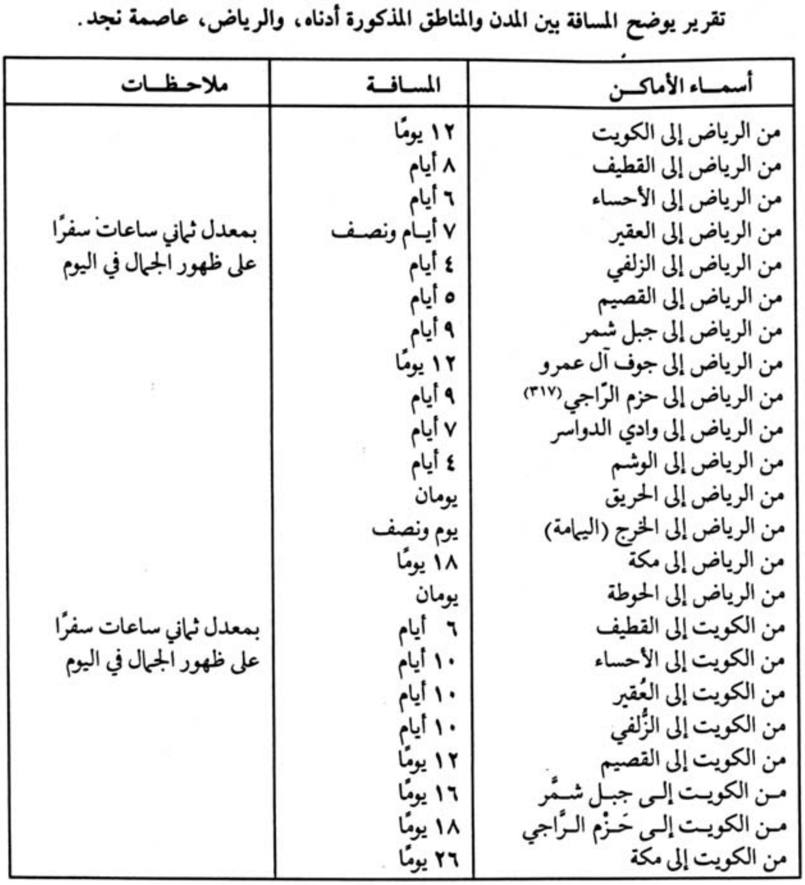

تقرير يوضح المسافة بين المدن والمناطق المذكورة أدناه، والرياض، عاصمة نجد.

أسمـــاء الأماكــن	المسافـة	ملاحـظـات
من الرياض إلى الكويت	١٢ يومًا	
من الرياض إلى القطيف	٨ أيام	
من الرياض إلى الأحساء	٦ أيام	
من الرياض إلى العقير	٧ أيـام ونصـف	بمعدل ثماني ساعات سفرًا على ظهور الجمال في اليوم
من الرياض إلى الزلفي	٤ أيام	
من الرياض إلى القصيم	٥ أيام	
من الرياض إلى جبل شمر	٩ أيام	
من الرياض إلى جوف آل عمرو	١٢ يومًا	
من الرياض إلى حزم الرّاجي(٣١٧)	٩ أيام	
من الرياض إلى وادي الدواسر	٧ أيام	
من الرياض إلى الوشم	٤ أيام	
من الرياض إلى الحريق	يومان	
من الرياض إلى الخرج (اليمامة)	يوم ونصف	
من الرياض إلى مكة	١٨ يومًا	
من الرياض إلى الحوطة	يومان	
من الكويت إلى القطيف	٦ أيام	بمعدل ثماني ساعات سفرًا على ظهور الجمال في اليوم
من الكويت إلى الأحساء	١٠ أيام	
من الكويت إلى العُقير	١٠ أيام	
من الكويت إلى الزُّلفي	١٠ أيام	
من الكويت إلى القصيم	١٢ يومًا	
مـن الكويـت إلـى جبـل شـمَّر	١٦ يومًا	
مـن الكويـت إلـى حَـزْم الـرَّاجي	١٨ يومًا	
من الكويت إلى مكة	٢٦ يومًا	

ارتبطت طرق شبه الجزيرة العربية ارتباطًا مباشرًا بتجارة البخور والمر والتوابل، التي شكلت مصدرًا اقتصاديًا مهمًا خلال العصور القديمة حتى عدها الكتاب الكلاسيكيون من أهم ثروات شبه الجزيرة، وكانت الدافع الرئيس وراء محاولات الدول المجاورة فرض سيطرتها على المنطقة. وهناك عدد من الدراسات التي تناولت تأثير هذه التجارة على السكان من النواحي الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. ولكن في هذه الدراسات نقص بسبب اقتصار جهود الباحثين على دراسة المصادر التقليدية، التي تشمل الكتابات

الكلاسيكية والعربية والنقوش ونتائج الحفريات، وعدم الاهتمام بدراسة كتابات الرحالة.

إن الاهتمام الكبير الذي أولاه الرّحّالة لتجارة البخور والمر ومصادرها في شبه الجزيرة العربية يجعل كتاباتهم مصدرًا جوهريًا عند إعداد الدراسات الجادة بشأن هذه التجارة العريقة. ومن خلال قراءة كتاب "نجل جروم" عن تجارة البخور والمر في شبه الجزيرة العربية تتضح أهمية الاعتماد على أدب الرحلات في دراسة تاريخ هذه التجارة القديمة(٦١).

فقد قارن الباحث مئات النصوص القديمة الموجودة في النقوش والكتب الكلاسيكية بمثيلاتها من كتابات الرّحّالة الغربيين، الذين اعتمدوا على زياراتهم للمناطق الزراعية وتدوين الملحوظات بشأن عمليات الإنتاج والتسويق والرسوم المفروضة من خلال معاصرتهم الفعلية لهذه الخطوات. وبعد مقارنة الكتابات القديمة والحديثة يخلص "جروم" إلى وجود تشابه كبير في وصف هذه الكتابات لمختلف مراحل الإنتاج والتسويق على الرغم من الفارق الزمني الكبير(٦٢).

ويتميز أدب الرحلات بتقديم وصف مفصل ودقيق عن المصادر الطبيعية لكل منطقة، ومن ثمَّ التعرف على نوعية الحيوانات والطيور وإمكان مقارنتها بما يتم العثور عليه في الحفريات الأثرية من مخلفات الإنسان القديم أو ما تم رسمه على صخور المنطقة. ويشير الرّحّالة إلى اعتماد السكان المحليين على ممارسة صيد الحيوانات البرية والطيور والأسماك بالإضافة إلى التقاط النباتات البرية، والذي عُدَّ جزءًا أساسًا من متطلبات المجتمع الغذائية(٦٣). ووثّق

---

(61) Nigel Groom, Frankincense and Myrrh. A Study of the Arabian Incense Trade, London: Longman, 1981.

(62) Ibid., p. 145.

(63) Doughty, op. cit, vol. 1, pp. 255, 370-373.

الرّحّالة المقومات الزراعة والحاصلات السائدة والأساليب المستخدمة في كل منطقة ونوعية مصادر المياه ونماذج السدود المختلفة ومواءمتها للبيئات المحلية(٦٤).

وأسهب الرّحّالة في وصف العقاقير والأدوية وطرق تحضيرها من المصادر الطبيعية وأساليب العلاج المستخدمة للإنسان والحيوان(٦٥). وحظيت الصناعات القائمة على الموارد الطبيعية مثل صناعة الأصباغ والصمغ واستخراج المواد العطرية واللبان باهتمام الرحالة، وهي صناعات قديمة نجد مثيلاتها في الكتب الكلاسيكية(٦٦).

إن وصف "بوركهارت" لعملية استخراج النفط من البحر الميت هو تصوير لما ذكره المؤرخ الإغريقي ديودور الصقلي عن استخراج الأنباط للنفط قبل حوالي ٢٣٠٠ سنة من الوقت الحالي(٦٧).

ولم يغفل الرّحّالة الصناعات المحلية كصناعة الأدوات المنزلية والزراعية، مثل صناعة المقابض والمحاريث وبيوت الشعر، وكذلك نوعية المواد المستخدمة في الصناعات المختلفة وبناء المنازل. كما تناول الرّحّالة ظاهرة استقرار السكان المحليين في الكهوف خلال أوقات معينة من السنة، مما يوفر معلومات مهمة عن استخدام الكهوف من قبل المجتمعات القديمة في المنطقة(٦٨). وعلى الرغم من استمرار استخدام الكهوف حتى الوقت الحالي، إلا أن تأثر سكانها بالتغيرات الحديثة في حياتهم اليومية أفقدهم أي ارتباط بمجتمعاتهم القديمة.

---

(64) Ibid., vol. 2, pp. 464-467.

(65) Ibid., vol. 1, pp. 299-297.

(66) Groom, op. cit, p.38-95.

(67) Diodorus, op. cit, XIX 98-99, and Burckhardt, op. cit, vol. 2, p. 394.

(68) Burckhardt, op. cit, vol. 2, p. 374 and Olivier, op. cit, p. 395.

كما أشاروا إلى تخصص بعض السكان في الحرف اليدوية وتنقلهم في البادية وبين المدن لممارسة حرفهم اليدوية(٦٩). إن معرفة الأدوات وطرق صناعتها يمكن أن يساعد الأثريين في تصنيف ما يجدونه من بقايا في الحفريات الأثرية، ومعرفة الكيفية التي تعامل بها الإنسان القديم مع بيئته المحلية وتسخيرها لخدمة مصالحه.

وأخيرًا يمكن الاستشهاد بما كتبه "فيليب هموند" عن الأهمية العلمية لكتابات "شارل داوتي" وما تحويه من معلومات قيمة لا يستغني عنها المتخصصون في الآثار والتاريخ. ويرى أن الكلمات العربية المرفقة بكتاب داوتي، التي قام بتعريفها وبيان مدلولاتها لا تقتصر أهميتها على الجانب اللغوي فقط، بل يجب النظر إليها من الجانب التاريخي؛ لما تحويه من معلومات مهمة عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية الخاصة بمجتمعات المنطقة(٧٠).

من خلال الاستعراض السابق تتضح أهمية أدب الرحلات لدارسي تاريخ شبه الجزيرة العربية القديم في كونه مصدرًا مهمًا في حقل يعاني من نقص كبير في مصادره الحالية. وهو اتجاه أفاد منه الدارسون الغربيون؛ إذ وفرت كتابات الرّحّالة للمؤرخين والأثريين إمكان التعرف على المواقع الأثرية قبل زوال بعض هذه المعالم. كما أسهموا في الحفاظ على النقوش والرسوم الصخرية من خلال التسجيل المبكر لها والمساعدة على نشرها وظهور الاهتمام بدراسة الكتابات العربية القديمة. وعلى الرغم من أهمية الآثار والنقوش في دراسة التاريخ القديم، فإنها لا تستطيع إمداد الباحثين بالكثير من المعلومات عن النظم الحضارية، وهو نقص يمكن تعويضه بالاعتماد على مصادر أخرى مثل أدب الرحلات.

---

(69) Olivier, op. cit, p. 396.

(70) Hammond, op. cit, p.159.

وتناول الجزء الثاني جوانب أخرى من أدب الرحلات، التي تعتمد على وصف الرّحّالة لمجتمعات شبه الجزيرة والنظم الحضارية السائدة خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، وهي جوانب استمرت على الرتابة نفسها وعدم حدوث تغيرات جذرية، عدا التغير الديني الذي جاء به الإسلام. ولكن نتيجة لدخول التقنيات الحديثة واعتماد السكان عليها حدث التغير الجذري في مجتمعات المنطقة، مما أدّى إلى تغير النظم والتقاليد السياسية والاقتصادية والاجتماعية وتبدل في البيئات المحلية السائدة في السابق.

إن مقارنة بعض الروايات القديمة والحديثة بيّنت أوجه التشابه الكبير على الرغم من الفارق الزمني، مما يدل على قوة المؤثرات البيئية على السكان المحليين واستمراريتها. ولعل في الاستعراض السابق لعدد من الدراسات الغربية الخاصة بتاريخ شبه الجزيرة العربية القديم، التي أفادت من كتابات الرحالة، دليلاً واضحًا على هذه الاستمرارية وأهمية هذا المصدر؛ إذ تم الاستشهاد ببعض الروايات الإغريقية الخاصة باستخراج المياه والنفط ومقارنتها بمثيلاتها من زمن أدب الرحلات. كذلك ساعد هذا الأدب في تحديد طرق التجارة والمواصلات في شبه الجزيرة والمدة الزمنية اللازمة للتنقل بين المراكز المختلفة. وتشكل كتاباتهم عن المصادر الطبيعية والبيئة المحلية عناصر مهمة، يمكن استغلالها بشكل فاعل عند دراسة المصادر الطبيعية والبيئات المحلية التي اعتمد عليها الإنسان القديم.

وختامًا لا ينبغي المبالغة والتعويل على أدب الرحلات في سدّ النقص الموجود في المصادر الحالية، ولكن لا ينبغي إهمال هذا المصدر الغني بالمعلومات القيمة وتجاهلها.

إن ترجمة كتابات الرّحّالة يعد عنصرًا مهمًا في وقوف أكبر عدد من المتخصصين على مختلف الكتابات والملحوظات الجوهرية عن مجتمعات شبه الجزيرة العربية في ظروف مشابهة للظروف السائدة في السابق. وهي كتابات يصعب على الباحث الإلمام بها بسبب نشرها بعدة لغات، وكذلك لعدم إمكان الحصول عليها.

إن إجراء دراسات مستقلة لكتابات الرحالة، واستخراج المادة الخاصة بموضوعات التاريخ القديم، واستخلاص المادة العلمية الخاصة ونشرها بهذه الموضوعات في أبحاث مستقلة سوف تفيد أكبر عدد ممكن من الباحثين. وبسبب وجود معوقات كثيرة أمام قيام العمل الأثري الجاد فإن كتابات الرّحّالة تظل من أفضل المصادر المتاحة التي توفر معلومات جمة عن المعالم الأثرية والنقوش والموجودات القديمة.